جدلية القومي والسياسي

لقد تعرّض دور مصر في النزاع مع اسرائيل لقيود عديدة ومتناقضة، حيث تأرجح تصوّر القاهرة لدورها الاقليمي بين رحى قطبين: مستلزمات الرومانسية القومية، وتلك التي تطلبتها الواقعية السياسية المحض. ولقد ادى اتبّاع اي من النقيضين الى خلق مضاعفات في النزاع، فكان موقف الرئيس جمال عبدالناصر، العام ١٩٦٧، وموقف الرئيس أنور السادات، العام ١٩٧٧، يمثّلان غاية التطرف من الناحيتين، بينما اجتهد الرئيس حسني مبارك، منذ تسلّمه زمام السلطة، لكي يتمسك بموقع في مركز التوسط الهندسي بين سلفيه. لكن السؤال عن سبب تبني مصر لدورها الجديد في المعادلة العربية ـ الاسرائيلية، والكيفية التي تتابع، من طريقها، ممارسة هذا الدور، يحتاجان الى بعض الاستطراد.

يصعب على من ينزلق الى دراسة دور مصر، من وجهة نظر معاصرة، ان يخرج منها سالماً، نظراً الى حدة التعرجات الحاصلة، لا سيما منذ العام ١٩٥٢. الّا ان ما يمكن تثبيته، في هذا السياق، ان ثمة استمرارية مدهشة حكمت القيادة المصرية حتى ما قبل هذا التاريخ. فعند قيام اسرائيل، رأت الاوساط المصرية، حينذاك، ان خطراً مباشراً بات يتهدد أمن مصر القومي، ومن الامور ذات المغزى المشاركة المصرية في حرب العام ١٩٤٨. في الوقت عينه، ومن خلال لعبة مرايا سياسية ليست جديدة، فرضت القضية الفلسطينية على الواقع المصري، خلال الحقبة الناصرية، وهذه المرة، ايضاً، كانت وثيقة الصلة باعتبارات الامن القومي المصري. وقد فرض هذا المعطى، مع معطيات أخرى لا مجال هنا لذكرها، ان تتعامل مصر مع قضية النزاع مع اسرائيل من منطلق «عروبي»[٥٤].

كان اتجاه عبدالناصر «العروبي» سبيلاً الى الهروب من محدودية موارد مصر ومواجهة الحاجات الاساسية للمجتمع المصري[٥٥]. غير ان عملية انسلاخ مصر عن النظام العربي بدأت، فعلياً، بعد هزيمة العام ١٩٦٧، حيث كانت مصر، في ذلك الحين، «تعبت من خوضها حرب الآخرين»[٥٦]. لكن عبدالناصر كان لصيق الالتحام بالتيار العروبي، لأنه اراد ان يبقى قائداً لهذا النظام. ولا ريب في ان دروس هزيمة العام ١٩٦٧ ساهمت، على الاقل، في انتاج نوع جديد من العقلانية في صوغ القرار السياسي، واصبح شعار الحرب المحدودة ذات الهدف الذي يؤدي الى «ازالة الظروف التي نتجت عن العدوان الاسرائيلي» سياسة مقبولة. وقد عبّر بيان آذار (مارس) ١٩٦٨ الشهير عن التفهم الجديد للدور المصري[٥٧]. كما لم تكن حرب «الاستنزاف» سوى مرتبة من التكتيك السياسي الذي وجّهه عبدالناصر الى الراديكاليين في حركة المقاومة الفلسطينية، والى المعتدلين العرب، على حد سواء، لاقناعهم بأنه لا يزال يمسك بزمام المبادرة[٥٨].

غير ان هذا المشهد السياسي لم يكن يحجب زوال «الاسطورة الناصرية» عن الاتجاه العروبي[٥٩]. فقد عملت دبلوماسية السادات على جرّ اقدام العرب الى لعبة الدول الحديثة؛ ولم يعد الصراع حول وجود اسرائيل، ولكنه اصبح نزاعاً على الحدود المرسومة لها. وفي اطار التزاماتها العربية، فان مصر، بثقلها العسكري، جاءت لترفض، بكل المقاييس، التوزيع الداخلي العربي للعمل الذي أوكل اليها الواجب الاساس في الدفاع عن القضية «المركزية»[٦٠]. هكذا، اتخذ السادات حرب العام ١٩٧٣ سبيلاً الى بناء شرعية جديدة للنظام المصري والمتميزة عن شرعيته في اثناء حياة عبدالناصر[٦١]. لقد كان التزام السادات هو «مصر اولاً»، والتزاماً بأن تبقى «مصر مصرية». وجاءت حرب العام ١٩٧٣ لتعطيه الفرصة التي طال انتظارها، لكي يتحرر من قيود النظام العربي. وفي سبيل ذلك، لم يتردد في زيارة القدس، العام ١٩٧٧، وفي عقد معاهدة صلح منفردة مع اسرائيل،